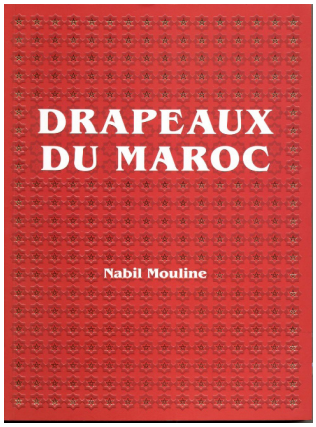

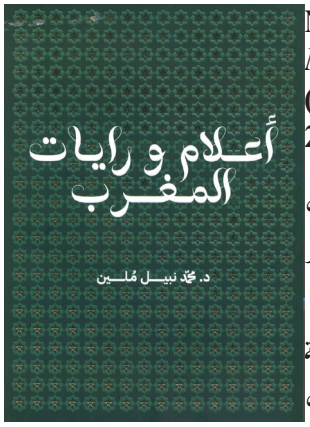

Nabil Mouline.- *Drapeaux du Maroc, une histoire symbolique* (Casablanca: Sochepress éditions, 2023), 167 p.

محمد نبيل مُلين.– أعلام ورايات المغرب، تاريخ رمزي. ترجمة عبد الحق الزموري (الدار البيضاء: سوشبريس، 2023)، 167 ص.

بعد دراساته العلمية عن **الخلافة المُتخيّلة للسلطان أحمد المنصور** [2009]، و**الدولة المخزنية في المغرب زمن حُكم الزيدانيين** [2013]، و**فكرة الدستور في المغرب** [2017]، عاد محمد نبيل مُلين، الباحث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي، بكتاب جديد عن أعلام ورايات المغرب، قام بتأليفه ونشره باللغة الفرنسية، بينما تولى عبد الحق الزموري ترجمته إلى اللغة العربية. وهو كتاب قد يبدو مختلفا عن مؤلفاته السابقة، لكنه يشترك وإياها على الأقل في تتبع الاستخدام السياسي للرموز، في سياق مُتسم بالتنافس مع الشرق على الخلافة الإسلامية أحيانا، وبالتجزئة السياسية للمغرب وما استتبعها من تنافس محموم بين مختلف القوى السياسية أحيانا أخرى.

ويتألف الكتاب في نسختيه العربية والفرنسية من تمهيد وتسعة فصول، تليها الملاحق وقائمة المصادر والمراجع. ولعل من أبرز مُميزاته، المزج الذكي والعمَلي بين النصّ ومجموعة متنوعة من الدعامات، تتمثل في الخطوط الزمنية واللوحات الكرونولوجية والرسوم التوضيحية والخرائط الأوروبية القديمة واللوحات الفنية الاستشراقية والصور الفوتوغرافية، فضلا عن الإطارات المخصصة للنصوص المقتبسة من المصادر المغربية والأوروبية. وخلافا للمُتوقع من كتاب عن الأعلام والرايات، لم يتوقف نبيل مُلين عند وصف تطورها المادي، بل، وهذا هو الأهم، انخرط في تفكيك وتحليل وتفسير مختلف الألوان والرموز والكتابات العربية المزينة لهذه الأعلام، مُستخدما إيّاها، على منوال السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين، كموضوع اجتماعي شمولي للكشف عن مختلف تمظهرات المجتمع المغربي وتحولاته على مستوى الزمن الطويل.

ولئن كانت المادة المصدرية قد أسعفته في إعادة تشكيل ملامح أعلام المغرب منذ القرن الحادي عشر الميلادي، فقد عجز، بسبب قلة المعطيات عن المغرب ما قبل المرابطي، عن تقديم إجابات بخصوص أشكال وألوان ودلالات الأعلام المستعملة في المغرب من القرن الثالث قبل الميلاد، وهو التاريخ المقترن بأول اسم معروف لأحد الملوك الموريين [باگا]، إلى غاية ظهور الكيانات السياسية الإسلامية اللامركزية. مُصرّحا في هذا الصدد بصعوبة بناء تاريخ مكتمل الشروط لأعلام ورايات المغرب طيلة هذه المرحلة، خاصة وأن الأمر يتعلق بالبحث في مجالات الإيديولوجية والرمزية. لكنه، ولتغطية هذا الفراغ، حاول البحث في منطقة الشرق الأوسط عما يُمكن استغلاله من معطيات، بُغية تمكينه من طرح فرضيات بخصوص الأعلام والرايات المستخدمة في المغرب طيلة الحقبة القديمة وبدايات العصر الوسيط. ولعل من أبرزها، طرحه مسألة انتقال الأعلام الأولى من أداة تعريف وتجمّع في ساحات المعارك، إلى شارات تعكس قوة الجماعة وتماسكها، فضلا عن تحولها إلى أدوات مُلك ورئاسة، تُعبّر عن مركزية وتعالي السلطة الموظفة لها. أما بخصوص بدايات المرحلة الإسلامية، فقد رجّح مُلين استعمال الكيانات السياسية اللامركزية في المغرب ثلاثة ألوان، هي: الأبيض والأحمر والأسود، مع اختلاف النقوش والزخارف والتعابير بطبيعة الحال، وذلك تبعًا لمواقفها من الخلافة العباسية. فابتداء من القرن IXم، كانت الممالك والإمبراطوريات الجهوية

التي تقاسمت أراضي الدولة العباسية، والراغبة في الحصول على الحد الأدنى من الشرعية، مثل المرابطين، قد اعترفت بالسيادة الإسمية للعباسيين، واستعملت بالتالي العلم الأسود كعلامة على التبعية؛ أما الممالك التي رفضت الاعتراف بالعاهل العباسي، مثل الأمويين والفاطميين، فقد اختارت العلم الأبيض، وربما الأحمر أيضا، للتأكيد على استقلاليتها وأحقيتها بالخلافة.

من هنا تبدأ قصة أعلام ورايات المغرب. فقد توقف مُلين عند أول إشارة إلى العلم المرابطي، أوردها البكري في مسالكه، بمُناسبة وصفه للحملة التي قادها عبد الله بن ياسين ضد منطقة درعة بين عامي 1050 و1054م، إذ كان لهم ''رجُل قد قدّموه أمام الصّف بيده الراية. فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعا، فكانوا أثبت من الهضاب.'' وإذا كان المرابطون قد اختاروا السّواد لونا لعلمهم، فإننا نجهل كل شيء عن حجم تلك الشارة وشكلها، والتي كانت تُحاط، حسب المصادر الوسيطية المتأخرة، بعدد من الرايات والألوية والبنود المختلفة الألوان، والمزينة بالصور والزخارف أو بصيغ التوحيد وبعض الآيات القرآنية. وخلافا لهم، أشهر الموحدون طموحاتهم الخليفية عبر اتخاذهم علمًا أبيضا ضخما يُدعى بالعلَم المنصور، كانت تصحبه ألوية وبنود متعددة ومختلفة الأشكال والألوان، يحمل كل واحد منها قيمة رمزية مخصوصة. ولئن كانت المصادر المغربية والأندلسية السبيل الوحيد للتعرف على أعلام ورايات مغرب ما قبل الموحدين، فقد نوّه مُلين بظهور نوع جديد من المصادر، ساهم بشكل كبير في تكوين فكرة تقريبية عن شارات الملك الموحدية، سواء على مستوى الأشكال أو الألوان أو الزخارف، ويتعلق الأمر هنا بشهادتين إيبيريتين، هما أغاني سانتا ماريا والرسومات الجدارية لغزو مايوركا؛ فضلا عن الشارة الموحدية الشهيرة المحفوظة في دير سانتا ماريا دي لاس هويلكاس بإسبانيا، والتي جمعت بين الزينة النباتية والزخارف الهندسية وفنون الخط العربي. وإذا كانت الآيات القرآنية المزركشة عليها قد اختيرت بعناية للدعوة إلى الجهاد وتبشير الشهداء من المقاتلين بالجنة؛ فقد أحال تواتر رقم ثمانية، على مستوى النجمة الثمانية التي تتوسط اللواء، والأهلة المذَهّبة المذيلة له، على أبواب الجنة الثمانية والملائكة الثمانية الحاملين للعرش الإلهي، وهو ما ربطه مُلين بفكرة الدعم الإلهي للمجاهدين في سبيل النصر/الفتح أو الشهادة.

أما بنو مرين، والذين لم يمتلكوا مشروعا سياسيا–دينيا على شاكلة المرابطين والموحدين، فقد أقبلوا على استعمال شعارات المنظومة السابقة. فأشهروا لذلك العلم المنصور الأبيض، والذي صار يُعرف بسَعد الدولة، مع منحه تأويلا واضحا يرتبط بمجموعة من المفاهيم مثل المركزية والاستمرارية والنقاء والقداسة والنور الإلهي. ولم يقتصر استخدامهم اللون الأبيض على العلم المجسّد للنظام القائم، بل تعدّاه إلى خيمة السلطان وبُرنسه وعاصمته الجديدة [المدينة البيضاء المسماة فاس الجديد]. ومثل سَلفهم، أرفق المرينيون العلم المنصور بعدد كبير من الرايات والبنود والألوية المتنوعة الأحجام والألوان، تجاوز تعدادها في عهد السلطان أبي الحسن مائة شارة، توصلنا لحسن الحظ بنماذج منها، توجد محفوظة في متحف كاتدرائية القديسة مرية في طليطلة، بعدما استولى القشتاليون عليها إثر انتصارهم على المرينيين في معركة طريفة عام 1340م. صُنع الأول برسم السلطان أبي سعيد عثمان عام 1312م في قصبة فاس، بينما صُنع الثاني برسم السلطان أبي الحسن بين عامي 1339 و1340م في المدينة البيضاء. وإلى جانب العلم المنصور والرايات والبنود المرافقة له، سلط نبيل ملين الضوء على علم آخر أحمر اللون، ورد في بعض الأطالس البحرية المؤلفة خلال القرنين XIVم وXVم، وتسرّع البعض في تقديمه كعَلم لأسرة بني مرين، عِلمًا أن المصادر المعاصرة أجمعت على بياض لون علمهم. وقد بيّن مُلين من خلال تحرياته أن الأمر يتعلق في الحقيقة برايتين حمراوين ظهرتا في خريطة بيترو فيسكونتي، نُسبت الأولى والحاملة لشكل مفتاحين أبيضين إلى مدينة سبتة، بينما نُسبت الثانية والحاملة لشكل مفتاح واحد إلى مدينة مليلة. وقد نبّه مُلين في هذا الصدد إلى احتمالية أن تكون المفاتيح مجرد خطوط لم يتمكن المؤلف من فك لغزها وفهم دلالتها حينئذ، فأوّلها كمفاتيح. وفضلا عن هاتين الرايتين، استعمل الخرائطيون والملاحون الأوروبيون ما بين عامي 1339 و1492م علامات جديدة لوسم رايات بعض المدن المغربية، خاصة بعد وفاة السلطان أبي الحسن المريني، وما تعاقب على البلد من أزمات طبيعية وسياسية، انعكست على المجال

الرمزي حيث تضاعف عدد الرايات كدلالة على تفتت السلطة المرينية وتشرذمها. ولعل خير دليل على ذلك، ما ساقه الراهب الفرنسيسكاني القشتالي المجهول في كتاب معرفة جميع الممالك، حيث أحصى ما لا يقل عن خمس مناطق مستقلة في المغرب، لكل واحدة رايتها الخاصة، وهي كالتالي: راية حمراء ممهورة بمفتاحين لسبتة؛ وراية حمراء تتوسطها رقعة شطرنج مربعة لمراكش؛ وراية بيضاء تحمل صورة أسد أسود لسوس؛ وراية بيضاء تتوسطها جذور نخلة خضراء لسجلماسة؛ وأخيرا راية بيضاء يتربع في قلبها جبل أسود لدرعة. أما بالنسبة للوطاسيين، فقد حافظوا عقب وصولهم إلى سُدّة الحُكم، على العلم المنصور الأبيض تبعًا لما ورد في خريطة العالم التي وضعها أمير البحر العثماني حاجي أحمد مُحيي الدين بيري، الشهير باسم بيري الرايس، عام 1513م، بُغية إظهار أولويتهم وطموحاتهم السياسية.

وبوصول الزيدانيين إلى الحُكم ودخولهم مراكش عام 1525م، أعلنوا بدورهم تبنيهم العلم المنصور مانحين إياه وظيفة سياسية رمزية محورية. ولئن كان عبد الملك المعتصم قد قام بتقديم الطوغ [ذيل حصان يعلو طرف عنزة] أمام المواكب الرسمية عوضا عن العلم الأبيض، اعترافا منه بسيادة الباب العالي، وذلك بعدما قدّم له يد العون في صراعه على الحُكم مع أمراء البيت الحاكم، فإن السلطان أحمد المنصور، قد أزاحه وقطّعه أمام أنظار وفد إسباني أثناء احتفال كبير نُظم عام 1581م، مُستبدلا إياه من جديد بالعلم المنصور، كتعبير منه عن استقلال المغرب، واستمرارية خلافة الغرب الإسلامي. لكن، وبمجرد وفاة أحمد المنصور عام 1603م عادت الفوضى مُجددا لتطبع المشهد السياسي، مُفسِحة المجال لظهور كيانات سياسية ودينية جديدة مثل ابن أبي محلي، والعياشي، والخضر غيلان، والدلائيين، والسملاليين، وأولاد أعراص، وموريسكيي هورناتشوس، لا شك أنها استخدمت شارات وأعلاما لتميُزها أيديولوجيا وسياسيا عن العائلة الزيدانية وعلمها الأبيض المنصور. لكننا، لا نتوفر على معطيات دقيقة بخصوصها، مع تنبيه نبيل مُلين إلى صعوبة الاطمئنان إلى ما أوردته الخرائط الأوروبية المعدّة في النصف الأول من القرن XVII م حول هذه الأعلام.

وخلافا لما قد يتوقعه الكثيرون، من احتفاظ العلويين بالعلم المنصور، وهو الذي استخدم بشكل متواصل كشارة للمُلك منذ العهد الموحدي؛ أقدمت العائلة الحاكمة الجديدة على استبداله بعلم أخضر، لعلّ النخب والعامّة قد ربطت بينه وبين الجهاد، أو لون الخِضر، أو علم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، مُتناسية أو غير مُدرِكة المعنى التاريخي الأسطوري الذي كان يختزله اللون الأبيض. إلا أن عددا كبيرًا من الزوايا والمتطلعين إلى الحكم سيعمدون إلى رفع العلم الأخضر لإظهار استقلاليتهم، كما هو الشأن بالنسبة لزاوية يوسف بن الحسن التّليدي في جبالة، والجيلالي الزرهوني المعروف ببوحمارة، وأحمد الهيبة؛ مُتسببين بذلك في كسر طوق المركزة والاحتكار الذي حاول العلويون فرضه على شارتهم. ولم يفت نبيل مُلين الإشارة ضمن السياق العلوي إلى البيرق الأحمر الخاص بقراصنة الرباط [جمهورية أبي رقراق]، والذي سيتحوّل إلى علم برّي بعد استيلاء العلويين على المدينة عام 1666م. وتكشف اللوحات الفنية المنجزة خلال القرن XIXم، والنماذج المعروضة بكاتدرائية القديس لويس الأنفليدية في باريس، عن تعايش العلمين الأخضر والأحمر، والذين يُحيلان بالتوالي حسب المؤلف على السيادة الروحية واحتكار السلطة السياسية.

ولما كان القرن XIXم قرن الضغوط الاستعمارية على المغرب، وما رافقها من تأثيرات أوروبية على النسق السياسي والمنظومة الفكرية، تسللت الأفكار الأوروبية حول العَلم كشارة تُمثل قيم الأمة وتطلعاتها، لتجد لها محلا في عدد من المشاريع الإصلاحية منذ مطلع القرن XXم. ويُعد المشروع الدستوري الذي قدمه علي زنيبر للسلطان عبد العزيز عام 1906م، أول نصّ، حسب نبيل مُلين، اقترح اتخاذ العلم الأحمر شعارًا وطنيا، بدل استخدامه كشارة ترمز إلى البيت الحاكم. وموازاة مع هذه المحاولات الرامية إلى تحديث المغرب، رفعت مجموعة من حركات المقاومة المسلحة شاراتها الخاصة، مثل العلم الأخضر والأحمر لأحمد الهيبة، والعلم الأخضر الذي يتصدره هلال لمحمد الريسوني، والعلم الأحمر لموحى أوحمو الزياني، والعلم الأحمر الذي يتوسطه مربع أبيض وهلال أخضر ونجمة سداسية خضراء لمحمد بن عبد الكريم الخطابي، فضلا عن الشارات الأخرى التي حملتها القبائل المغربية. أما بخصوص الطرف الفرنسي،

فقد فرض –من خلال مُوظفي الجمارك– على السّفن المغربية عام 1913م، رفع علم فرنسي يوجد في رُكنه مربع أحمر تتوسطه نجمة خماسية خضراء، قبل إقدامه على عقد مشاورات انتهت بتبني العلم الأحمر وتمييزه بنجمة خماسية خضراء، لتتمّ شرعنته بواسطة ظهير للسلطان يوسف، والمؤرخ بـ 17 نونبر 1915م.

لم تقابل مكونات الحركة الوطنية العلم الأحمر ذو النجمة الخماسية الخضراء بالرفض، بل سارعت إلى تبنيه ورفعه في المظاهرات الشعبية وأعياد العرش كأداة للتعبير عن الوحدة والتضامن الوطنيين، كما طالبت في عرائضها الإصلاحية باحترام العلم الوطني وتجريم من سوّلت له نفسه تدنيسه. كما عمد السلطان محمد بن يوسف إلى رفعه فوق أحد أجنحة القصر الملكي في الرباط أثناء احتفال بهيج عام 1947م، وهو ما سيحصل بعد بضع سنوات في مناطق الهيمنة الإسبانية، كتعبير من مختلف الأطياف المغربية عن ظهور الدولة الوطنية. وتجدر الإشارة هنا إلى ضعف تغطية نبيل مُلين لمسار العلم المغربي في منطقة الحماية الإسبانية، فضلا عن صمته بخصوص منطقة طنجة الدولية، والتي لا نعرف، من خلال الكتاب، إن كانت قد واكبت تلك التحولات الطارئة في كل من المنطقتين السلطانية والخليفية. أما بالنسبة لمرحلة ما بعد الاستقلال، فقد اتسمت حسب المؤلف بحصول '' انتكاسة رمزية '' للعلم، حيث فَقَد صفته الوطنية ليتحول من جديد إلى شعار دَالّ على النظام القائم، إذ اقترن ظهوره في عهد الملك الحسن الثاني بالتظاهرات والاحتفالات الرسمية. وقد عبّرت بعض الفئات المستاءة من النظام حينئذ عن معارضتها له، عبر تغييب العلم الأحمر في جُل أنشطتها، واختيارها شارات أخرى بديلة مثل راية القبائل، والتي تحولت إلى علامة مميزة للهوية الأمازيغية الما فوق وطنية، أو راية محمد بن عبد الكريم الخطابي، المعبّرة عن خصوصية الريف. لكن التحولات العميقة التي مسّت أشكال التنظيم الاجتماعي والتعريف بالذات، أعادت للعلم قوته الإيحائية، خاصة أثناء التظاهرات الرياضية، ليعود من جديد أداة لتمثيل الأمة وتجسيد روحها وقيمها وطموحاتها.

لم يفت نبيل مُلين أن يضُمّ إلى كتابه موسوعة صغيرة في هيئة ملحق، تضمنت سائر أعلام المغرب ورياته من العهد المرابطي إلى مطلع الألفية الثالثة، بلغ تعدادها 86 علمًا وراية وبندًا ولواءً، اعتمد في ضبط أشكالها، وألوانها وزخارفها على ما جادت به المصادر المكتوبة والمنمنمات الأوروبية والأطالس البحرية، وسائر الموارد البيبليوغرافية المخطوطة والمطبوعة التي تمكن من الاطلاع عليها. ولعل المتفحص لقائمة المصادر والمراجع المعتمدة في إعداد هذا الكتاب، سيتبين له الجهد الكبير الذي بذله المؤلف في البحث عن أدق التفاصيل المتعلقة بأعلام ورايات المغرب، والتي كثيرًا ما غابت عن المتون الإسطوغرافية المغربية التقليدية.

سمير أيت أومغار
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش